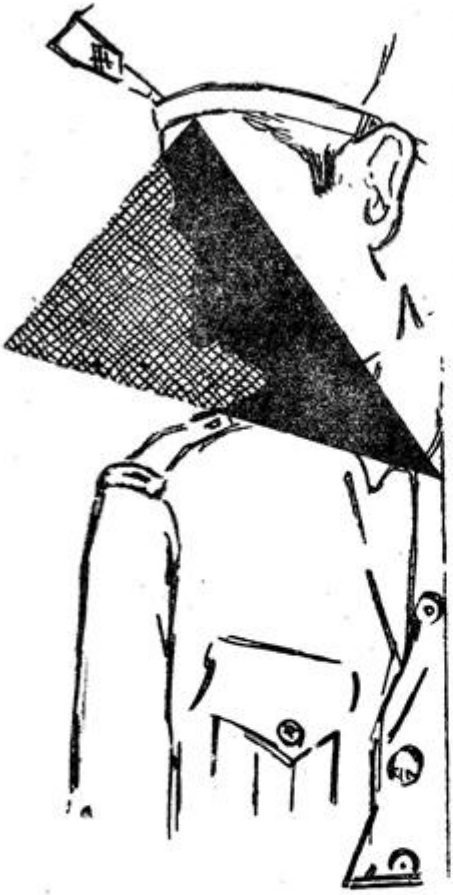

الناس والحجر

بقلم : بكر راشوان

لم يبق السر مستورا بين السبعة كما كان منتظرا ، كأى سر موزع بين أفراد كثيرين ، أى أنه فى ظرف أيام قليلة كان السر معروفا لمعظم أهل مدينة « بالخ » . وكان آخر من عرفه هو السلطان الذى ارسل حراسة فى الحال ليقبضوا على الحكيم ويستولوا على أكسير الحيـاة .

ظل الحـــراس يطرقون باب الحكيم « ابونيل » دون أن يتلقوا اذنا بالدخول، فكسروا الباب ، وما كادوا يدلفون الى حجرته ، حتى وجدوه جالسا فى كرسيه فاقد الحياة ، وعلى ملامحه أبلغ آيات الازدراء للجرعة واهبة الحياة .

وأمامه فوق المنضدة ، كانت القوارير السبعة ، ستة منها ما زالت مليئة ، وأما السابعة فكانت فارغة . ووجدوا فى يده ورقة ملفوفة مكتوب عليها :

« سنوات طويلة قضيتها فى البحث وراء العلم والمعـرفة ، وها أنذا أترك للعالم ثمار كدحى وجهودى .. وهى ستة أنواع من السم الزعاف .. وكان من الممكن أن أضيف اليها نوعا آخر ، لكنى أمسكت عن اتمامه ..

اكتبوا فوق قبرى : هنا يرقد الرجل الذى رفض أن يدوم العذاب الانسانى .. فوهب للبشرية نعمـــة الموت التى قد تكون فى حد ذاتها غير ضارة » ..

تطلع الداخلون الى بعضهم بعض ، وهم يجاهـــدون لكشف الغموض عن كلمات « ابونيل » الأخيرة .

وبينما هم كذلك محدقين ، اذ أفزعهم صوت مرتفع لشىء يتحطم فى الحجرة المجاورة . وتضاعف انزعاجهم عنـدما انطلق امامهم قرد ضخم بفروة ناعمة ، فى غاية المرح ، يتحرك فى نشاط خارق، مما أقنع الجميع بأن الفيلسوف الفقيد — وهو تحت احساس طاغ من التهكم والازدراء — قد قدم الى هذا المخلوق كل قطرة من أكسير الحياة .

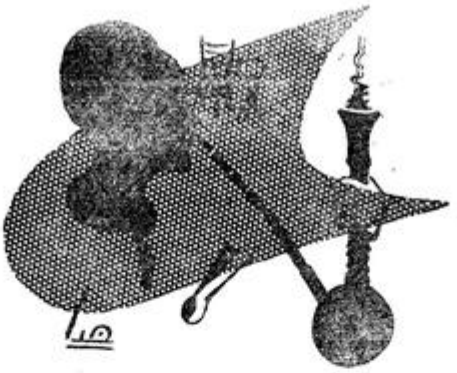

قريتنا تنام من المغرب وتستيقظ مع الفجر .. ولا شيء يملأ الليل فى قريتنا سوى السكون وعواء الكلاب ، الذى يتردد فى جنباتها فى صـــوت مبحوح كحشرجة انسان مريض .. او كأن الليل يكح فى الشوارع والأزقة ومن على اسطح المنازل ..

ولا احد فى قريتنا يسهر أبدا الا فى النادر . فما يكاد الواحد منهم « يخطف » صلاة العشاء حتى يتوكل على الله ويذهب الى بيته ويغلق الباب من الداخل بترباس ضخم ، ويلقى نظرة على الجاموسة المربوطة تحت السقيفة فى رحباية الدار ويحمد الله ويشكر فضله على هذه النعمة ويتخطى أولاده المكومين على المصطبـــة ويدفس نفسه تحت اللحاف بجوار امراته فان كان مزاجه معتدلا أعطاها وجهه ويلكزها فى جنبها لتعطيه وجهها ويأخذان فى الدردشة ونتف جلود اهل القرية حتى يغلبهمـا النعاس .. اما اذا كان مزاجه ليس على مايرام أعطاها ظهره وراح فى النوم وشخيره يعلو ويهبط كصوت مكنة الطحين حينما تخروش ..

حتى القهوة الوحيدة فى قريتنا لا تسهر .. فبعد صلاة العشاء بقليـــل يأتى الخفير الى القهوة «فيلهف» واحد شاى وكرسى معسل ثم يتنحنح ويأمر القهوجى بالتشطيب لأن نصف الليل خلاص .

فينادى عبد الصمد القهـوجى على واحد من الرجال القاعدين على الدكك أن ينتبع معه برميل الماء ذا الرائحـــة النتنة التى يدلق فيه ماء جوز المعسل وتفل الشاى وبقايا البن طول النهـار ليسكباه أمام القهوة ..

وما تكاد ماء البرميل تسيل أمام القهوة وتروح فى التراب وتفوح رائحتها الكريهـة كانذار للزبائن بأن ميعـــاد التشطيب قد حان حتى يقـــوم كل الرجال ، ويهرش كل واحد فى جيبـــه ليخرج القرش ويعطيه لعبد الصـــمد ويلقى تحية المساء وينصرف ..

حتى لعيبة الكوتشينة يقومون بعـد ضجيج وشتيمة وزعيق وكل واحد منهم يصر على أنه الغالب وأن العشرة لم تنته بعد .. ثم يتفقون فى النهاية ان يكملوا السهرة فى منزل واحد منهم يكون عنده

كوتشينة جـديدة ويعطوه على كل دور يلعبونه قرش تعريفه ..

ما تكاد ابواب المنازل تفتح لتمتص رواد القـهوة حتى يتراكم السكون فى الشوارع ويتراكم ويجثم على القرية فى كتل حتى يخيل اليك أن الأصـوات لا تنفذ فيه ..

لا أحد فى قريتنا يسهر بعد صـلاة العشاء الا الكلاب على أسطح المنازل وفى الشوارع .. حتى الخفراء لا يسهرون.. فما يكاد الواحد منهم يلف لفة فى الدرك حتى يستلطف مصطبة ويدخل فى بالطو الحكومة كالقنفذ ويحتضن البندقية بعد ان يفرغها من الرصاص ويعدل ترباس الأمان زيادة فى الحيطة ثم ياخـذ فى الشخير كسلطان زمانه .. !

لم تكن قريتنا تسهر أبدا الا فى ليالى قليلة نادرة تكاد تكون معدودة .. وتبلغ من ندرتها أن الناس يحسـبون ايامهم بها .. لا تسهر قريتنا الا فى فرح احد شبابها أو فى موت احد اغنيائها ، وما اقل أن يتزوج الشبان فى قريتنا وما اندر أن يموت الأغنياء فيها .. !

والأفراح فى قريتنا لها مواسم فهى دائما عقب جنى القطن أو حصاد القمح، وحين تحين دخلة احد الشبان ينصب فى الأرض الفراغ التى تتوسط القـرية مسرح صغير ارضيته تتكون من ظهـر عربة نقل قديمة يقيمونها على براميل مملوءة بالرمـل لتتحمل المسرح ومن عليه .. خيمة صغيرة لا تكاد تغطى الا الممثلين فقط ، وفى قوائم الخيمـة تعلق بضع كلوبات تظل تلهث الليـل كله .. وعلى الدكك القليلة التى تستعار من كل منزل وعلى الأرض أيضا يتكوم الفلاحون.. يجلسون القرفصاء بالطواقى البيضاء التى تكبس على نافوخهـم ، ورؤسهم متداخـلة بين اكتافهم كالأوز حين ينام وعيونهم محملقة فى المسرح وفى البنت الوحيدة التى ترقص وتهـز وسطها وتمط شفتيها بما عليهـا من كميات ضخمة من احمر شفاه رخيص.. عيونهم محملقة وكوع الواحد منهم فى جنب زميله يلكزه باستمرار والتعليقات تنطلق كالصواريخ فتخترق الهـواء وتدخل الخيمة المنصوبة وتصـعد على المسرح لتنـدس فى اذن البنت التى ترقص فيزداد رقصها وتحاول أن ترفع ذيل فستانها الأحمر قليـلا فتتمايل الرؤوس وتعلو الأصـوات مطالبـة بالمزيد .. فالبنت بيضاء كاللبن وهذا يكفى جدا فى قريتنا لأن تكون كالسنيورة عزيزة .. فمقياس الجمال فى قريتنا هو البياض فكل النساء فى القرية سـود كالغربان .. القشف يغطى أرجلهن حتى الركبة وأيديهن متشققة من طين الأرض وروث البهائم .. اما هذه البنت فبيضاء كعبها احمر يلمع وكأنها تحكه بالطوبة ليل نهار ..

فى ليلة الفرح هذه يسهر كل رجال القرية حتى الصباح ثم يظلون بعد ذلك اشهرا كثيرة يحكون عن آخـر فرح ويقصون عنه القصص ويصفون البنت الراقصة .. كل رجل يصفها باسهاب وتفاصيل **وكأنها نامت فى حضنه الليل كله** فيكذبه الآخر ويصفها وصفا يختلف

تماما عن وصفه ويتدخل ثالث ليختلف معهما وكل يصر على أن كلامه هو الصحيح حتى اذا ما سمعهم غريب عن القرية فسيخيل اليه أنهم لم يروا هذه البنت فى حياتهم وانما يصفونها من الخيال..!

الأفراح فى قريتنا لها مواسم ومعروفة قبل أن تحدث بشهور بل أحيانا بسنوات .. أما مآتم الأغنياء فتحدث فجأة وتهبط على القرية كاللقية أو كليلة القدر حين تفتح للعباد الصالحين .. فما يكاد المنادى يلف فى البلد يخبر الناس ـ الذين يكون عندهم خبر قبل المنادى نفسه ـ أن الشيخ فلان قد توفاه الله حتى يرتدى كل رجل أحسن جلابية عنده ويخرج ليسير فى الجنازة .. أما بالليل فالخيمة الكبيرة الطويلة العريضة تنصب فى الوسعاية التى تتوسط البلد، وشيخ من البندر يظل يقرأ الليل كله ، واحيانا يتنازل بعض الحكام ويزورون المأتم ويلقون السلام على الفلاحين .. واهم من ذلك كله اللحم الكثير الذى يفرقه أهل الميت على روح المرحوم ..

تلك هى الليالى القليلة النادرة التى تسهر فيها قريتنا .. أما ما عدا ذلك فالأحداث قليلة معروفة لا تستحق الذكر ولا تستحق حتى مجرد شغل البال .. حتى الأحداث الضخمة التى تهز المركز من أوله الى آخره وتجعل البيه المأمور يشرف القرية ليلعن سنسفيل جدودها.. حتى هذه الأحداث لم تكن تثير فى قريتنا ادنى دهشة بل تؤخذ كقضايا مسلم بها او كأمور مفروغ منها ، تماما كطلوع الشمس فى الصباح وغروبها فى المساء .. فقد يحدث أن يقتل رجل من عائلة ابو كامل آخر من عائلة الشيخ السنى او العكس .. وهذا يحدث كثيرا فى قريتنا ، فينقلب المركز وتهيج المديرية ويثور المدير على المأمور ويسرع المأمور ليركب العربة الفورد ويشرف القرية ويرمح العساكر طول النهار فى شوارعها وحواريها وينشغل العمدة فى ذبح الذبائح للحكومة ويلمع الخفراء اسلحتهم ويرتدون الأحذية .. ثم ينفض السامر على أن الجانى مجهول لأن أهل القتيل لا يبوحون بالسر ، ولا أحد فى القرية رأى الجريمة وهى ترتكب بالرغم من انها ارتكبت فى عز الظهر وفى وسط الناس..

وتمشى الحكومة وهى تعرف انها ستأتى بعد أيام مرة أخرى لتأكل عند العمدة وتحقق فى مقتل القاتل.. ! وبعد هذا تسير الأمور فى القرية فى مجراها الطبيعى .. كل الناس يعرفون القتيل ويعرفون القاتل ، بل ويعرفون من هو الذى سيأخذ بالثأر ومن هو الذى سيقتص منه .. كل شىء معروف بالنسبة لأهل القرية فهم يقولون ببساطة وكأنهم يمصون عود قصب أن محمد بن الشيخ عبد السلام هو الذى سيقتل مصطفى بن الريس حسنين .. حتى مصطفى نفسه يعرف هذا ويعرف انه سيموت ولا يستطيع أن يرد قضاءه وكأنه حكم الأزل لا يقدر على دفعه .. حتى البندقية التى يعلقها على كتفه لا تعدو أن تكون حجابا كغالبية الأحجبة التى يعلقها الفلاحون على صدور مرضاهم فى لحظات الاحتضار .

كل شيء فى القرية معروف وواضح كالشمس .. القطن يبذر اليوم ليبص من الأرض بعد شهر وتاكله الدودة بعد شهور ، وبنك التسليف سيتاخر فى تسليم الكيماوى ، والقطن سيذهب هدرا والشكاوى ستنهال على العمدة ولن يتحرك العمدة والذى سيكتب الشكاوى هو الأستاذ عبد الرحيم المدرس الالزامى والذى يملك فدانين فى القرية ..

كل شيء واضح ورتيب .. ان الغد فى القرية لا يحمل فى طياته احداثا مجهولة كالتى تحدث فى المدينة .. فأيام المدن بتراء ، فى أفقها تطفو سحابات غدها المجهول ، الضجيج الذى يملأها والحياة التى تجرى وتنبض فى شوارعها تكاد تقول لك عش يومك أما الغد فدعه للقدر .. أما فى القرية فاليوم كالأمس والغد كاليوم ، الفلاح يغمض عينيه فى المساء وهو يكاد يعرف ماذا سيفعل ومن سيقابل ومع من سيتشاجر غدا ، بل ويعرف من الذى سيفض الخناقة التى ينوى أن يقيمها على الجسر من اجل الماء ..

لذلك كله كان الخبر الذى انتشر فى القرية ذات صباح مثيرا غريبا .. يثير كثيرا من التساؤل ويملأ الرؤوس بأشياء عجيبة غامضة .. ولا أحد يدرى من الذى ابتدأ بالخبر ومن هو أول من نقلة .. فقد استيقظ الناس ذات صباح فاذا بالخبر يملأ القرية وينتقل على كل لسان ويدخل كل بيت ، حتى الواحد منهم لا يكاد يعرف بالتحديد متى سمعه ومن هو الذى قاله له .. كأن القرية علمت به مرة واحدة أو كأنه نبت من الأرض او هبط من السماء أو كأن الشمس حملته معها وهى تخرج من وراء الجبل الشرقى فالقته على القرية مع أول خيوطها الصفراء التى تغمر القرية كل صباح ..

الخبر كان مثيرا ومدهشا فى نفس الوقت .. انفعل به كل الناس .. حتى الأطفال اخذ كل واحد منهم ذيل جلبابه بين أسنانه وانطلق الى جسر الترعة أو الى الحقول ليحكى لزملائه الخبر ، ويعوج الطاقية ويهرش فى مؤخرة قفاه كالكبار ثم يقول :

ـ أما حتبقى شوية ليالى ياوله وحنسهر للصبح .

والنساء بالرغم من أن أكثرهن قد رحبن بالخبر فى بادىء الأمر فبمجرد سماعهن الخبر وافقن عليه بل وتحمسن له الا انه عندما اختلت كل واحدة بنفسها بعد أن ردت عليها بابها وجدت شيئا من الغيرة ومن الخوف الغامض ينبش قلبها وينغمش احساسها ومشاعرها بشيء مجهول غامض فتتمنى من اعماقها ـ ولو أنها تخاف أن يلفظ لسانها بكلمة ـ ألا يحدث هذا وأن يكون الخبر مجرد كذب واشاعة من اشاعات الرجال الذين ليس لهم شغلة ولا مشغلة سوى الاشاعات .

أما الشبان فقد تلقوا الخبر بارتياح تام وحماس بالغ فبدلا من المشوار الطويل الذى كانوا يقطعونه فى الذهاب

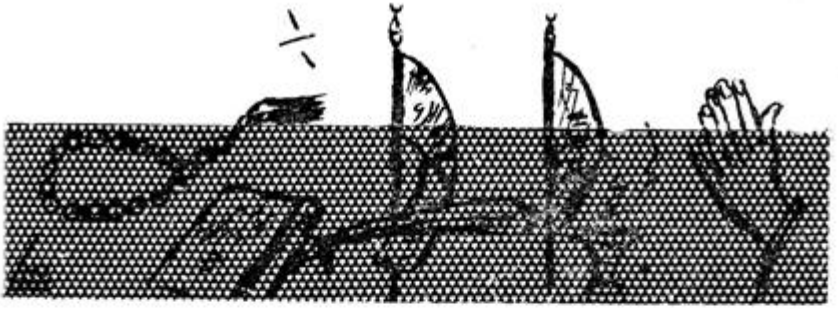

الى البلاد المجاورة كل موسم ولمدة ليلة واحدة اصبحت الحكاية على الأبواب كما يقولون وفى قريتهم هم حيث يعرفون كل شبر فيها ومجال الفرفشة واسع وعريض .. والحكاية ليست ليلة يخطفونها خطفا ولكنها ستكون اسبوعا بحاله فيفعلون ما يروق لهم فى بحبحة .. وبلا خوف ! .

الفئة الوحيدة التى عارضت هذا الخبر بكل قوتها هى فئة الرجال الكبار السن فقد اعتبروا هذا مسخرة وقلة أدب وهل هم ناقصين بلاوى ودوشة دماغ ..! ورغم المعارضين والمترددين .. ما كادت الشمس تحمر وتقارب منتصف السماء حتى كان الخبر قد تأكد تماما .. ففى دوار العمدة كان اولاد الشيخ عبد الدايم يجلسون بجوار العمدة يؤكدون له فى كل لحظة أن هذا هو الحل الوحيد وان هذا الطلب ليس مطلبهم الشخصى ولكنه مطلب الشيخ نفسه .. فمنذ اسبوع وهو كل ليلة يلف على اولاده جميعا يخبرهم بانهم يجب ان يبلغوا العمدة بالحكاية .. وما زالوا يقصون عليه القصة ويحكون له الحلم عشرات المرات حتى كاد العمدة يشك فى أنه هو نفسه قد حلم أيضا بهذا الحلم وانه رأى تماما الشيخ عبد الدايم وهو يخطر فى جلبابه الأبيض وعمامته الخضراء الضخمة وذقنه الطويلة المهيبة ومسبحته التى تتكون من تسعة وتسعين حبة وهو يمد يده ليملس على دماغ العمدة ويأمره باقامة مولد له هذا العام وعقب العيد مباشرة ..

والشيخ عبد الدايم هذا هو أكبر مشايخ قريتنا الذى يبلغ عددهم اربعة .. ولا يدرى أحد فى القرية بلد الشيخ عبد الدايم الأصلى ، فأجدادنا يحكون لنا انه غريب عن القرية هبطها ذات مساء واقام فى المسجد ليل نهار يصلى بالناس ويخطب الجمعة ويلقى احاديث العصر ويقيم الذكر فى المساء ويحكون عن معجزاته العجب فيقولون انه كان أحيانا فى موسم الحج يختفى تماما من القرية ولا يدرى أحد أين ذهب حتى اذا ما انتهى موسم الحج ظهر فى القرية قبل أن يهبطها اى حاج ليقول للناس انه كان فى الحجاز يؤدى الفريضة .. والغريب فى الأمر ان بعض

الحجاج من قريتنا كانوا حينما يعودون من الحجاز ويسمعون الخبر حتى يؤكدون تماما أنهم رأوا فى الطواف رجلا يلبس أبيضا فى ابيض يشبه تماما الشيخ عبد الدايم ولا يستبعدون اطلاقا ان يكون هو .. فيقبل الناس من كل مكان ليقبلوا يده طالبين منه الدعوات الصالحات .. ولم يتزوج الشيخ عبد الدايم ولم ينجب ورغم ذلك فقد ظهرت طائفة من الناس فى القرية تدعى انهم أولاد الشيخ عبد الدايم .. ومات الشيخ عبد الدايم وظل أولاده يتوارثون اسمه ويتقاسمون النذور التى تأتى الى ضريحه ..

ويبدو أن أولاد الشيخ عبد الدايم قد أحسوا منذ سنتين أو ثلاثة أن النذور التى تأتى الى ضريح الشيخ قد ابتدأت تقل حتى كادت أن تكون نادرة وأن بعض مشايخ القرى المجاورة الذين تقام لهم موالد ضخمة يكتسبون شهرة اوسع وأكبر من شهرة الشيخ عبد الدايم وبالتالى يكسب أولادهم وأتباعهم اكثر مما يكسب أولاد وأتباع الشيخ عبد الدايم ، فأخذوا يلحون على العمدة أن يقيم مولدا للشيخ والعمدة يعارض، والرجال كبار السن فى القرية يعارضون بشدة لأن اقامة مولد فى القرية معناه اضاعة هيبة البلد وبهدلتها وانتشار السرقات فيها .. فمع كل مولد لابد أن يأتى الغجر بخيامهم ونسائهم واطفالهم وكلابهم .. !

والغجر قوم لا بلد لهم ولا مسكن يحملون خيامهم فوق حميرهم ويقولون بلاد الله لخلق الله يذهبون مع الموالد الى كل بلد .. لا يرعون حرمة لأى بلد ينزلون فيه ولا يأبهون بشىء على الاطلاق .. يقول عنهم أهل قريتنا والقرى المجاورة انهم خطافة ، حرامية، يسرقون الكحل من العين .. نساؤهم يسرقن رجال القرى ورجالهم يسرقون نساءها وأطفالهم يسرقون العيش من أيد الأطفال فى الشوارع .. حتى كلابهم تجرى فى الحوارى وراء كلاب القرى لتسرق منها العظم .. لا قانون يحكمهم سوى قانون الخطف والسرقة ..

ونساء قريتنا اخشى ما يخشينه أن يهبط نساء الغجر الى القرية فنساء الغجر – فى رأيهن – عيونهن زائغة تندب فيها عصابة اذا نظرن للرجال فانهن ينظرن لهم بعيون محملقة لا تخجل ولا تتكسر تحت نظرات الرجال .. عيون تكاد رموشها تتكلم وتنادى على الرجال .. خدودهن حمراء قد لوحتها شمس الغيطان او كان حمرتها قد اكتسبت من النيران التى يشعلنها دائما امام الخيمة فى المساء ، اجسامهن ملفوفة مبرومة كعود الخيزران تنساب تحت الفستان الأسود اللامع فى تناسق يسبى عقول الرجال ! .

ومنذ أن طافت فكرة اقامة المولد بذهن أولاد الشيخ عبد الدايم واخذوا ينشرونها وسط الشبان ويطالبون بالمولد فى كل مكان . منذ هذه اللحظة والرجال الكبار السن يعارضون ويلتفون حول العمدة فى اصرار ليبعدوا عنه كلام أولاد الشيخ عبد الدايم .. حتى كان ذات

يوم مات فيه ثلاثة بغال للعمدة دفعة واحدة ولم يعرف سبب موتها ، ولم يستدر البدر بعد فى نفس الشهر حتى كان مخزن القمح قد اشتعلت فيه النار، وهاج العمدة وحقق وضرب الخفراء ولما لم يصل الى حل ايقن ان عينا اصابته .. وفجاة وبلا مقدمات مرض ابنه الكبير بالحمى ولزم الدار مريضا يتوجع .. واحتار العمدة واخذت تشيله افكار وتضعه افكار وهو يضرب كفا بكف ويسأل .. ما الحل ؟ .. وكانت فرصة لأولاد الشيخ عبد الدايم .. فرصة من ذهب .. وانتهزوها .. !

واخذوا يلتفون حول العمدة ق

الدوار يشربون القهوة ويزنون فى آذانه طول النهار وطول الليل بأن الشيخ عبد الدايم يريد مولدا ككل مشايخ القرى المجاورة وأن الشيخ عبد الدايم كان كفيلا بمنع هذه المصائب لولا انه غاضب من العمدة لأنه يعطل اقامة المولد .. وقلوب الناس فى قريتنا يرعشها حتى مجرد الخاطر العابر بأن حادثا ما يمكن ان يحدث .. فالرجل فى قريتنا مهما كان غنيا ومهما كان مستنيرا وحتى لو كان من أولاد أبو على الذين يشترون الأهرام كل يوم من البندر .. كل هؤلاء يفرحهم كل الفرحة دعاء ينبعث من لسان امرأة غلبانة . . ويخيفهم كل

الخوف ان يدعى عليهم أحـــد حتى ولو كان مجذوبا يلبس خيشـــة على اللحم .

لذلك فقد خاف العمدة من كرامات الشيخ عبد الدايم وأمر باقامة المولد.. وطار الخبر فى القرية يقـول ان الشيخ نفسه هو الذى ذهب الى العمدة فى المنام ليالى طويلة ، بعضهم قال انها كل ليلة جمعة والبعض الآخر قال انها اسبوع وراء بعضه وفريق ثالث يؤكد أنه سمع العمدة نفسه يقول انه منذ شهر والشيخ يأتى اليه كل ليلة بعد صلاة العشـــاء ويظل يوصيه باقامة المولد ويوصيه حتى مطلع الفجر ..

وخاف المعارضون فى ان يجهروا برأيهم لئلا تصيبهم لعنات الشيخ عبد الدايم فهم كانوا يعارضون حينما كانت هـذه رغبة شباب القرية اما ما دامت هذه هى رغبة الشيخ نفسه فالعين لا يمكن أن تعلو على الحاجب .. وقد كان ..

وذات مساء اضيئت الأرض الفراغ التى تتوسط القرية بنور قوى وانتشرت عشرات الكلوبات فى انحـائها واقيمت المراجيح والخيمات الصغيرة .. واقبل الفجر بخيامهم واشتد الرقص والغناء الى الصباح ..

وظلت القرية اسبوعا لا يحسب من العمر .. أسبوعا بأكمله ظلت تسهر فيه لوش الصبح .. حتى جاءت الليـــلة الكبيرة فخرجت القرية بأكملها تتفـرج على الليلة الكبيرة وتتفرج على موكب الرؤية الضخم الذى يتقدمه أكبر أبنـاء الشيخ عبد الدايم بجلبـــابه الأبيض الحريرى والعقال الحجازى يطوق رأسه والكوفية تهفهف على أكتافه وهو فوق حصان ابيض اصيل ومن خلفه حمـلة السيوف يدقون بها أعناقهم ، ويلوحون بها فى الهواء فى هستيرية وحملة الدفوف والطبول يقرعونها فى قوة وعزم وكأنهم يدقون عليها لأول ولآخر مرة فى حياتهم ..

كانت النظرات التى تملأ وجوه الناس فى قريتنا نظرات عجيبة يشع منهـــا الابتسام ويشرق فيها البشر وتكاد تتسع لتطوق كل خلجات الوجه .. نظرات باسمة تحمل آلاف المشاعر وترسم آلاف الأحاسيس وتحكى حلاوة الأسبوع الذى عاشوه وتحكى ايضا مرارة الأيام التى سيعيشونها بعد هذه الليلة ..

كان كل شىء فى الليلة الكبيرة بهيجـا ومثيرا وحلوا .. كل شىء فى المولد كان يتلون بما يتمدد فى اعماق النـــاس من اشياء غامضة لعلها الفرح بالنور الذى يملأ القرية او لعلها الخوف من الظلام الذى سيبتاعها منذ اليوم التـالى .. النور الذى كان يتلألأ فى سماء قريتنا فى تلك الليالى كان يمسح عن القـــلوب احزانها ويذيب الهمـوم التى كانت قد طوقتها فى ساعات النهار .

كل شىء فى الليلة الكبيرة كان يتخذ ألوانه من داخل نفوس الناس كان الليل كان يغمس فرشاته فى اعماق النـاس ليلون بها الساحة والطريق وقمة المئذنة والوجوه .. !

واكتظت ساحة المولد بالشـبان .. جذبتهم الأنوار واجساد الراقصـــات والزحام فجاءوا ليقضـوا ليلتهـم فى المولد .. والنساء أتين من كل جهة فى القرية وصعدن الى اسطح المنازل التى تطل على الساحة وانكفين بصدورهن على الجدار وراحت عيونهن تتجول فى المولد وتندس فى الزحـــام تتحسس اجساد نساء الغجـــر وقلوبهن على الرجال ..

ولأول مرة لا تنام قريتنا من المغرب..
ولأول مرة لا تدور الترابيس الضخمة في الأبواب تغلقها باصرار مع غروب الشمس ..

الفرحة بالليلة الكبيرة جعلت الناس يغفلون عن كل شيء .. !

ومع خيوط الفجر عاد الناس الى بيوتهم ليناموا ويحلموا بالمولد ويمنوا النفس بمتع اكثر في السنة المقبلة .. لمن يعيش .. !

وقبل أن يصفصف السامر تماما وتخلو الساحة من الناس كان الفجر يلمون خيامهم وينسابون مع خيوط الصباح الأولى الى حيث لا يعلم أحد ..

ولم تكن أعين الناس قد راحت في النوم ، بعد حين انبعث من عدة اماكن في القرية صرخات تعلن على أن شيئا قد حدث ..

وعندما استيقظ الناس والشمس تغمر كل القرية علموا ان بقرة محمد ابراهيم الذى يقع منزله بالقرب من ساحة المولد قد اختفت وان جاموسة علوان من شرق البلد قد راحت وان نبوية زوجة حسين ابو دومه قد قلبت الأرض بحثا عن حليها وقرشين الراجل تحويش العمر فلم تجدهما .. !

وظلت قريتنا بعد ذلك شهورا طويلة تتحدث عن السرقات التى حدثت وتؤكد في اصرار ان الفجر ناس خطافة حرامية وغلطان هو الذى يسمح لهم بالاقتراب من منزله ولا يصح أبدا أن تسمح لهم أى قرية بالدخول فيها واقامة الموالد..

ولكن ما كاد يستدير العام ويقترب ميعاد المولد حتى نسى الناس فى قريتنا تماما هذه السرقات .. وأشرقت وجوه الشبان والرجال والأطفال وهم يحلمون بليالى المولد السعيدة .. وازدحم ضريح الشيخ عبد الدايم بالناس يتمسحون بتابوته ويملسون بأيديهم على العمامة الكبيرة الضخمة المبنية فوق التابوت وهم يؤكدون فى كل مرة انه منذ ان اقيم المولد وكرامات الشيخ عبد الدايم تحل على القرية ..

واحيانا كان يحاول احد الرجال الكبار السن أن يعارض فى اقامة المولد ويحاول ان يذكر الناس بالسرقات التى حدثت .. كانت الرؤوس تهتز فى عنف واصرار وهى تؤكد أنه لم يحدث اى سرقات فى القرية .. وكيف تحدث السرقات والشيخ عبد الدايم يحميها وبركاته تمتد الى كل شبر فيها .. واقيم المولد وسهرت قريتنا اسبوعا بأكمله .. وانفض المولد واكتشفت سرقات وصمم الناس على عدم اقامة المولد مرة اخرى ..

ولكن ما كاد العام يستدير حتى جاء الفجر ونصبت المراجيح واضيئت الساحة ..

وما زالت قريتنا الى الآن تقيم المولد كل عام .. وما زال الفجر يحضرون الى قريتنا ليرقصوا فيها ويسرقوها فى نهاية الأمر .. والرجال والنساء والأطفال فى قريتنا يؤكدون فى كل مرة انه لم يحدث أبدا سرقات .. وان كرامات الشيخ عبد الدايم تحمى القرية وتمتد الى كل شبر فيها .. !